على هامش مؤتمر
التعبئة القومية
بكلية آداب اسكندرية

الدين أكبر دعامة فى مقومات القومية العربية وأجل رسالة للتقدم البشرى

للأستاذ حسنى طه شكيبان

الدين بمعنى مجموع المثاليات العليا فى التفكير والخلق والاتجاه والعمل .

الدين بمعنى المثاليات التى تدعو الإنسان للتفكير فى هذا الوجود : أرضه وسمائه ، مادته وحياته ، أزله القديم ، وحاضره القائم ، ومستقبله السعيد المرتقب.

الدين بمعنى المثاليات الداعية للتفكير فى مصدر الوجود الأعظم ، واهب الحياة ، ومبدع الكون ، ومدبر الأمر ، والتعرف على آيات مجده فى صنعة الوجود ، وشكر نعمه على ما أفاء على الكائنات من عطاء ، وهيا للانسان أكرم كيان ، فجعله خليفته الأكبر فى الأرض فسخرها له ، وسخر له ما فيها .

الدين بمعنى المثاليات الداعية للتخلق بالسجايا النبيلة والمثل العليا ، والسعى الحثيث فى سبيل إسعاد البشرية ، بعد إنقاذها من فوضى الضلال والانحلال ، وبناء الحضارة الإنسانية على مبادىء الخير والعدالة والمساواة والإخاء وتقديس الحق والجمال والحياة .

الدين بمعنى المثاليات الداعية للتفكير فى سر الحياة ، وعلى أنها فيض الحق الأزلى ، وليست نبع المادة الجامدة ، وليست نهايتها هنا على الأرض ، وإنما وراءها مجال للرقى فى عالم الخلود والنور والإشراق .

الدين بمعنى المثاليات المنظمة لحكومة الدولة وصلاتها بغيرها على أساس احترام الحقوق ، وتقديس كرامة الإنسان ، والتعاون المثمر فى سبيل تطوير الحضارة البشرية نحو الكمال .

الدين بهذا المفهوم :

(١) هو أساس حضارات الإنسانية قديما .

(٢) وهو هو أساس حضاراتنا القادمة ، ولذلك أكده دستورنا اليوم .

(٣) وهو هو أكبر دعامة للقومية العربية ، ودعامة كل نهضة أسيو فريقية قادمة ، وأساس حضارة الإنسانية القادمة فى أوربا وأمريكا وروسيا - قريبا كان ذلك أو بعيداً - فما شقيت الإنسانية وتشقى إلا لبعدها عن مبادئه الكريمة .

الدين بهذا المفهوم :

جاء به آدم فعلم أبناءه طرائق الحياة وقدسية الكمال فى تطور الحياة ، ثم جاء به من بعده كل نبي كريم من لدن الله العظيم ، جاء به نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، فدين الله الذى بعث به رسله واحد منذ كان آدم حتى محمد صلى الله عليهم أجمعين . قال تعالى : « إن الدين عند الله الإسلام » فأتباع نوح مسلمون قال الله عنه فى خطابه لقومه :

« فان توليتم فما سألتكم من أجر إن أجرى إلا على الله وأمرت أن أكون من المسلمين . »

وأتباع إبراهيم وموسى وعيسى مسلمون . قال تعالى عن ابرهيم وأبنائه : « ووصى بها ابرهيم بنيه ويعقوب : يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

وعن موسى وقومه : « وقال موسى : ياقوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين . وعن عيسى وأتباعه :

« فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصارى إلى الله . قال الحواريون نحن أنصار الله آمنا بالله واشهد بأنا مسلمون » .

الدين بهذا المفهوم هو إسلام الوجه والقلب والضمير لله لتحقيق أكرم رسالة على الأرض . رسالة الخير والحق حتى يكون الإنسان ربانيا كريما . .

رسالة سعى فى سبيلها كل رسول ومصلح . .

وتطلع إليها سيدنا عيسى حين قال فى إنجيله :

« ليأت ملكوتك يا ألله » وبشر كثيراً بقدوم ملكوت السموات على الأرض وفى القلوب .

وقال عنها القرآن الكريم :

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة »

ولذلك كان عليه أن ينطلق فى كل مجال ليسخر جميع الطاقات فى الأرض وأعماقها ، والمحيطات وثرواتها ، والجبال وسفوحها ، والجو وطبقاته .

فى المادة وفى الحياة . وحتى يجعل من الأرض مسكنا للنور والحكمة ، ومهداً للسعادة والسلام .

الدين بهذا المفهوم لم يجد مجالا أكرم من رسالات الأنبياء ، ولا صورة أتم من دعوات موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم أجمعين .

وحين كان اليهود على هداه اختارهم الله على علم ، وحين تنكروا لتعاليم الحق وقتلوا الأنبياء ناداهم يحي وداود وعيسى عليهم الصلاة والسلام فقالوا لهم: يا أبناء الأفاعى ولعنوهم أشد لعنه :

« لعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون .

وقال الله عن أتباع عيسى مؤيداً لهم ضد من كفر به من اليهود وغيرهم :

إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلى ومطهرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة .

وقال عن أمة محمد الكريم وملته : « ملة أبيكم ابرهيم هو سماكم المسلمين من قبل ، وفى هذا ليكون الرسول شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على الناس .

كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله . .

الدين بهذا المفهوم لم يجد أروع من هذه الكلمات المضيئة الداعية والدافعة لخير الانسانية . فى التوراة :

« تحب قرينك كنفسك » سفر اللاويين وفيه : « كالوطنى منكم يكون لكم الغريب النازل عندكم ، وتحبه كنفسك . » وفى سفر الخروج « قيل للناس إن الحياة الصالحة أعلى درجة ورحمة من حياة العدواة والبغضاء . » وتجد فى أسفار عانوس وأشعيا وغيرهما دعوات حارة لمكافحة الفقر والحرب والبغضاء وتمجيد الرحمة والتعاون ، وفى سفر الأمثال نقرأ مثلا :

« القليل من العدل خير من الغلال الكثيرة بغير حق . » « لاتقل : أجزى على الشر ، ولا تقل : كما صنع بى هكذا أصنع به » ومن سفر الخروج — إصحاح (٢١) نقرأ : « وإذا بغى إنسان على صاحبه ليقتله بغدر فمن عند مذبحى تأخذه للموت . (١٤) ومن ضرب أباه وأمه يقتل قتلا . (١٥) ومن سرق إنسانا وباعه أو وجد فى

يده يقتل قتلا . (١٦) . . وإن حصلت أذية تعطى نفساً بنفس (٢٣) وعينا بعين ، وسنا بسن ويداً بيد ، ورجلا برجل . (٢٤)

وفى إصحاح (٢٢) تقرأ : ولا تضطهد الغريب ولا تضايقه لأنكم كنتم غرباء فى أرض مصر . (٢١) لا تسيء إلى أرملة أو يتيم . (٢٢)

وفى انجيل عيسى : « ملكوت الله فى داخلكم . »

« من سيرك ميلا فسر معه ميلين ، ومن نازعك ثوبك فاخلع له الرداء أيضا . » « من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر أيضا . »

ودعا إلى التسامح الكريم : « لا تقابلوا الشر بالشر . » « أحبوا أعداءكم ، وباركوا لاعنيكم ، وأحسنوا إلى مبغضيكم) وصلوا من أجل الذين يسيئون إليكم ، وإن سلمتم على إخوانكم فقط وجافيتم الغريب عنكم فأى فضل تصنعون . »

وجمع رسالته فى تحرير الإنسانية من آصار العبودية : « روح الرب على لأن الرب مسحنى لأبشر المساكين ، أرسلنى لأعصب منكسرى القلب ؛ لأناوى للمسبين بالعتق ، وللمأسورين بالانطلاق . وللعمى بالبصر وأرسل المنسحقين فى الحرية . »

ثم جمع كيان الحياة فى كلمة : الله محبة .

أما فى القرآن الكريم فتقرأ :

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا ، وقبائل ، لتعارفوا إن أكرمكم عندالله أتقاكم . »

« وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل . ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين . ولا تستوى الحسنة ولا السيئة أدفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم . ويرفع قدر الصالح لمنازل النبيين :

« ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً

وقال نبى الإسلام : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . »

مؤتمر قادة التعبئة :

لقد تحدث السادة المحاضرون الكرام عن مقومات القومية العربية من التاريخ المشترك ، والتجاوب الفكرى ، والوحدة الثقافية والطبيعة التى تعطى أكثر مما تأخذ ، وتقوم على التضحية . والإيثار ، والتقاليد المشتركة ، والموقع الجغرافى المتشابه والمتكامل واللغة والتجانس . تحدثوا

عن كل ذلك شرحاً وإفاضة ثم قال الأستاذ محمد سعيد العريان : إن إهمالنا الدين فى الحديث عن مقومات القومية العربية إنمـــا هو أثر من الاستعمار حين كان يثير المنازعات باسم الدين والتعصب ليعيش هو فى هذا الجو وتحت اسم حماية الأقليات . أما الحقيقة فنحن جميعا عرب نؤمن بالله وإن عبده هذا على الديانة المسيحية ، وعبده هذا على الإسلام .

ولتفصيل هذه الفكرة عقدت هذا البحث الكريم . فالواقع الذى لامراء فيه أن كل هذه المقومات التى ذكرها الأساتذة الكرام إنما هى آثار الدين وفروعه فهى الدعامة الكبرى التى تفرعت منها هذه المقومات ، وحتى الموقع الجغرافى إنما هو من اختيار السماء لهذه الأمة الجيدة التى عاشت فى رحابهـــا كل الديانات السماوية تقريبا . .

وحتى الديانات الأرضية كانت فى الشرق ، فزرادشـــت فى فارس ، وكونفشيوس فى الصين ، وبوذا فى الهند ، إنما هم رجال الشرق ، وليس عجيبا أن يكونوا أنبياء فقد قال القرآن العظيم : « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك » .

وقال رسول الإنسانية : « إن لله مائة ألف وأربعة وعشرين ألف نبى . » فى جو مبادىء هذه الديانات الكريمة جاء هؤلاء الدعاة الكرام .

وحتى عندما خلا الإنسان يفكر فى الوجود والإصلاح لم تخرج فلسفته على مدى القرون وعلى وفرة من تحدثوا - لم يخرجوا على الإنسانية بجـــديد عما جاء فى ديانات الشرق الكريم .

والمرة الوحيدة التى ظهر فيها فيلسوف غربى يشبه أن يكون نبيا — ونعنى به سقراط فى اليونان كان على مشارف الشرق وتلميذه أفلاطون تلميذ للشرق أيضا فأثر فى أرسطو بأثرين شرقى وغربى .

وعلى هذه المبـادىء انطلق قائد العروبة جمال عبد الناصر يعمل لمؤتمر باندونج بجمع الدول الآسيو فريقية فى صعيد واحد ولفكرة واحدة هى نبع هذه الديانات ومن مبادئها الكريمة فالتعايش السلمى ، والتعاون ، والحياد الإيجابى ، وتحريم الحروب والتجارب الذرية ، وتوجيه الذرة لخدمة السلام ، وتحرير الشعوب المستعبدة . كل أولئك سطور كريمة فى الدين حيث كان .

وقد وجدت مبادىء الإنسانية كاملها وسموها فى الإسلام حين جاء به

نبي العروبة وهادى العـــالمين محمد الكريم ، وبه وجدت المبادىء قائد موكب التحرير الأكبر ، ورائد ركب الحضارة الإنسانية ؛ ومنـذ جاء والانسانية فى طريقها إلى الكمال البشرى ، وهى واصلة إليه يوما ما . - قريبا إن شاء الله تعالى - « ولتعلمن نبأه بعد حين » ، وما عرفت القومية العربية وجوداً قبل رسول الاسلام لقد كانت شعوبا مشتته مستعبدة لفارس والروم فجاء إليها وحررها ، فاندفعت إليه باسم المبادىء التى جاء بها تدخل فى دينه ، أو تقف بجانبه ضد فارس ، ذلك أن المسيحية لم تعرف لها وجوداً كما وجدت فى الشرق العربى ومن هنا انطلقت الشعوب تستقبل جيوش الاسلام ، بل وقف المسيحيون بجانب إخوانهم المسلمين خلف صلاح الدين الأيوبى ضد الصليبيين الرومانيين بالأمس ووقف المسيحيون مع المسلمين خلف جمال عبد الناصر فى بور سعيد وسيناء اليوم . باسم المبادىء الواحدة التى جعلت لكل مقومات العروبة كيانا فيما بعد .

ذلك أنه ما حاربت روما باسم المسيحية بالأمس ، وما حاربت لندن وباريس باسم المسيحية اليوم وإنما باسم السيطرة والاستعلاء والطغيان ، الذى يبرأ منه السيد المسيح وهى باسم هذه السيطرة قضت وتقضى وحاربت الشعوب المسيحية ونهضتها فى قبرص وفى جيل طارق وإيرلندا وأمريكا وأستراليا والحبشة وغيرها بالأمس فلنعط للدين حقه من التكريم ولنقدر حق أنفسنا ، فنحن ما ندعو إلى ضلالة حين نقول :

إننا باسم الدين المشـــتمل على مبادىء الحضارة الأنسانية والذى انبعثت منه كل مقومات القومية العربية منذ كان فى الشرق العربى إنسان حتى موسى وعيسى ومحمد وذرية ابراهيم الشرقى العربى عليهم الصلاة والسلام - باسمه وعلى هداه ننطلق .

إننا اليوم باسمه نقيم دولتنا العربية الكبرى ، وباسمه نقيم الحلف الأسيوفريقى الكريم ، وباسمه نقيم الحلف الاسلامى العربى الأسيوفريقى ، وباسمه نقدم لأوربا وأمريكا مبادىء الخير والحق ، ولروســـيا مبادىء الايمان ونور الحكمة فى فهم طبيعة الوجود والحياة حتى تبنى الانسانية لنفسها حضارة الخلود فى الأرض وفى السماء تحقيقاً لأروع رسالة تحدث عنها القرآن الكريم حين قال الله تعالى « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة (٣٠) » وكذلك بعلنا كم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا والسلام على من اتبع الهدى

هذا ولنا عودة إن شاء الله

كلمات للشبلى

(١) سئل الشبلى عن الزهد فقال : « تحويل القلب من الأشياء إلى رب الأشياء »

(٢) قال الشبلى :

كيف يصح لك التوحيد ، وكلما ملكت شيئاً ملكك ، وكلما أبصرت شيئاً أسرك . .

(٣) ومن كلماته : الصوفى إذا استقبله حالان أو خلقان كلاهما حسن كان مع الأحسن .

(٤) روى الطوسى فى اللمع قال : كان دعاء الشبلى : اللهم لك الحمد يا ضياء السموات والأرض ، ويا بهاء السموات والأرض ، ويا قيوم السموات والأرض ، ويا نور السموات والأرض ، بحق أسمائك عليك ، وبحقك عليك ، فلاحق أجل منك عليك ، وبحق ما أنزلت وبحق من جعلت له فهما ، فيما أنزلت يا الله . ويامن لاسواك الله ويامن أنت الله ، صلى الله على محمد ، وعلى آل محمد :

ويقول الطوسى : دعاء مجرب مجاب

(٥) قال صاحب الرسالة من روائع مناجاة الشبلى

ذكرتك لا أنى نسيتك لمحة وأيسر ما فى الذكر ذكر لسانى
وكدت بلا وجد أموت من الهوى وهام على القلب بالخفقان
فلما أرانى الوجد إنك حاضرى شهدتك موجودا بكل أمان
فخاطبت موجودا بغير تكلم ولاحظت معلوما بغير عيان

(٦) ومن تعريفاته للتصوف : « التصوف ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك : »